عن كائن يقفز من محيط رمادى

(فراغ القرن الحادى والعشرين)

نص أدبى

كتبه: قاسم حمود الريس

عن كائن يقفز من محيط رمادي

فراغ القرن الحادي والعشرين
(نص أدبي)
"فلسفة الفراغ"

(مدخل إلى العالم)

لمحة سريعة كانت يوماً تضطرب برؤية ضبابية تقبع تحت جمجمة طفل لم يتجاوز الحادي عشر من عمره، عن صيرورته الأخيرة بعد أن تكوّنت كل الطرق التي أدّت به إلى أن يكون بالشكل النهائي هو.

على عتبة الحياة يبدأ خُطاه، خُطى كان حتماً يتساءل عنها: هل هي حتميّة؟ أم أنّها اِختيار؟! كيف يكون ذاك اِختيار وقد بدأ له بأنه الطريق الوحيد أمامه؟! الخطوات مُتنوّعة وقد صُفّت بطريقة غريبة، وهي الخيار الوحيد. أو سؤال كان يلّح بقوة: هل رصف الطرق عن طريق مُشيّديها؟ أدّت بطريقةٍ ما لخلق فجوات حدثت ببعض الطرق؟!

تبدو البدايات دائماً مُثيرة للاِهتمام، التشويق، الحماس للبدء، الانخراط والامنيّات التي تكون مصاحبة للتجارب طور الخوض، ثم النتائج، تتدرج النتائج وما يترتّب عليها من مشاعر إلى تشعّبات لا يمكن حصرها. غير أن هناك شعور واحد/ ونتيجة واحدة يحصلن، قد تختلط بعض المشاعر قليلاً، ولكن سيطغى عليها واحد بالنهاية. وعليه تكون كل الأحداث المُرتبطة التالية.

تُخاض التجارب العديدة باِختلافها واختلاف أهدافها، إلاّ أنّ حلقة المشاعر تكون واحدة، كالبوصلة تماماً، والإنسان هو المؤشر، مهما إتّجه، سيكون هناك شعور يعرفه تماماً، قد اختبره سابقاً بتجربة سابقة تختلف.

يتكوّن الإدراك الكليّ، لمفهومية (عيش التجارب، وإطار الإنسان المحدّد جداً).. وإن كان بنهاية الأمر سيطغى على الإنسان شعور واحد!

ليلة واحدة تحت سقف، بين ساعات الشتاء الطويلة، سماء رمادية، وشارع هادئ، فارغ من الأرواح. كفيلة بجعل الإنسان يتقلّب بين كل المشاعر المُمكنة، والأفكار الأكثر جنوناً. ليلة

واحدة كفيلة بجعل إنسان يعيش حيوات عدّة بمكان واحد فقط. لمحة عن العالم بأسره. سيتكفّل الأرق بعمل ما لا يستطيع الآخرون عمله، وفعل ما لا تفعله أحداث اليوم من طعنات بالروح، يترك الجسد يتلوى بين الألم والأرهاق.

الأيام تمُرّ كمرور الثواني، والجسد يتقدّم تجاه العجز والوهن لا محالة.. والروح تارة تنطفئ وتارة تشتعل, والنفس بأغوارها تداري الظلمة مرّة، والوضوح أمام الآخرين مرّات عديدة.

الوعي يتبدّل ويتشكّل عن الأحداث، يتباطأ من جهة ويسرع لأخرى. تماماً كسباق الآخرين بالحياة، لإلتهام أكبر كمية مُمكنة منها. ثم ماذا؟! ثم ماذا؟! الأسئلة تصير بالنهاية وقبلها تتكوّن بطريقة معقدّة جداً، من السهل النطق بها، من الصعب محاولة إيجاد إجابة لها؟! وهل كان من المفترض أن يكون لكل الأسئلة إجابات؟! منذ متى افتُرض على الإنسان أن يعيش بلغز عليه حله؟! أليس الإنسان هو من صنع حياته التي هو بها اليوم؟! هل كانت الأسئلة لازمة؟! هل كانت الإجابات أمام عيني الإنسان؟! هل صنع الإنسان من وجوده أزمة؟! أم أنّه خلق من الأزمة مساحة بسيطة رحبة للعيش ولو لفترة؟! فترة مكوثه البدائي، بجسده البدائي، بعقله البدائي!

يزدحم الفراغ بكل ترهات الكائنات البشرية، يحتمل حربها القائمة منذ بدء تكوّن الكائنات، ويزيد على ذلك بتحمّله لما هو أكبر من ذلك. لدى الفراغ القدرة على التسامح مع كل شيء، وكل أحد، كل الأفكار، المُفرطة بالتفنن بوضع قيم للإنسان كما ينبغي له أن تكون، والأفكار شديدة السمّية تلك التي أحيت مجموعات وقتلت آخرين، كانت مُتنفس لمجموعات، بينما كانت حبل مسموم خنقت به آخرين. الحيّز الذي كان قبل وأثناء وبعد، أنه لطالما كان موجود، ربما كان ينتظر منذ البداية، أو أنه يشعر بالحماس حالما يتم التخلص من المادة التي شغرته، لما بعد ذلك! يبقى الحيّز دائماً موجود، إلى أن يمتلئ بأحد مناسب يجعل منه ذو قيمة حقيقية.. ليكون ذاك الحيّز بعده يختلف عما كان عليه بالسابق. تشبه فكرة المعايير بعالم البشر، حيث تكون بعدما تعمل مع الأغلبية الساحقة بالمجتمع، إلا بحال كسرها! وكيف يتم ذلك؟! قد يكفينا أن نُلقي نظرة على الصور المُشبعة باللون الأحمر كنتيجة لذلك.

(العالم)

تتوسط اللوحة عالم جداري " أبيض اللون " بينما اللوحة ذاتها تعّج باللون الرمادي، كعالم عصفت به ألوان فنان بشكل عشوائي قد غضب على صنع يديه وخلقه لما بداخل هذا العالم، وبدأ يطمره على قدر استطاعته باللون الرمادي .

بلحظة مُباغتة وسريعة، اِنسلِ كائن رمادي من وسط اللوحة للعالم الخارجي. لحظة ولادة عظيمة شهدها الكون لكائن قفز من عالم رمادي. عدا بِخفة شديدة تجاه الفراغ الذي أمامه، ظهر كما لو أنه يفرّ من أحد، المشهد غريب، هل كان قبل في دهمة، أحالت بينه وبين العالم؟!

قفز الكائن بعد الولادة الأولى، بهتت اللوحة التي كان لها ينتمي أكثر مما كانت بالسابق. أخذ يلتف حوله، كان العالم مُثير لِإكتشافه، أرض يمشي عليها، وسماء فوق رأسه يبدو الوصول لها من المستحيلات، سقف جامد بشدة ودّ لو كان بإستطاعته اِختراقه، المساحات الجانبية كانت كافية بشكل مُرضي للقفز، للجري يمنة ويسرة، للإنطلاق بحُرّيّة بجسده الرمادي حيثما شاء.

قفز الكائن فرحاً بوجوده، غمرته سعادة لا يعيها هو بذاته. جموع الناس أجّجت بمشاعره فهم الكائن البشري بكامل كينونته، أفكاره، مشاعره، ظنونه وحدسه. جذب عينيه مشهد لجماهير غفيرة كان يكتظّ بهم أحد الشوارع أمامه، خطى بينهم بخطوات بطيئة جداً، تفرّق الجمع كلما حط بخطوه، يمنة ويسرة، تشاهده الوجوه، تقطبت حواجبهم، زمّ شفتيه الواقف على اليمين، واِمتعضت أخرى باليسار، اِشمأزوا الأغلب من هذا الكائن الرمادي، بدأت تضطرب حركته، إكمال طريقه بين الجموع، أو الهرب منهم بعيداً. كانت الأسئلة تساورهم، وعلت أصواتهم سخطاً من هذا الكائن: ما هذا؟! كيف يكون كائن بهذا الشكل؟! من أين جاء؟! ما الذي جاء به إلى هذا العالم؟! أمسخ هو أم كائن بشري مثلنا؟! قال أحدهم لآخر:" يبدو بالنسبة لي أنه كائن " مُتكامل " بطريقة غريبة؟!" ليجيب الآخر بعد أن أظهرت تعابير وجهه اشمئزاز لم تعرفها أعين الكائن:" متكامل؟! بل قبيح بشكل اِستثنائيّ!" تخطى الكائن النصف منهم، وأكمل طريقه وهو يضع يديه على رأسه ووجهه، يحاول التملّص من نظراتهم، الإفلات منهم خشية أن يقع بين يدي أحدهم، ويتّم تمزيقه لجرم لا يعلمه، هرب منهم وابتعد, سعدوا لخلاصهم منه. توقف أمام مباني شاهقة، المدينة التي راح يحاول بها قراءة الوجوه، كانوا يشتركون بطريقةٍ ما بأشياء عدّة، أحد

أهمها: اِنشغالهم عن بعضهم البعض، وكأن الكائن البشري بات بالقرن الحادي والعشرين لا يلحظ الكائن البشري الآخر، أو ربما لا يهتم. بعد ذاك الموقف شعر بتضاد غريب. أمّا أن يكون ملحوظ بشدة، أو مُهمّش بشدة. لاحت فكرة أن الآخرين لربما اِستمدّوا لذة أو مُتعة غريبة من الآم الكائن الآخر. أو أن الأغلب الذين لا يهتمون لبعضهم البعض، يحاولون إيجاد متعتهم من الآم بعثروها على قلائل، قاموا بخلقهم منذ بدء الحياة.

آسرته مناظر عدّة، وبثّت الشكوك حول العالم من جهة أخرى. رجل توقف ونفث الدخان من فمه، بعد أن جذب عقب السجاره بشدّة، غارت عينيه نحو عالم هو أعلم به. خطف منظر الدخان لبّ الكائن الرمادي. وسرق منظر " التلاشي " هذا الكائن من العالم المحيط به. أغرم بتلاشيه نحو اللاشيء. عتمت الرؤية قليلاً ثم اختفت. تساءل الكائن الرمادي: يا تُرى كيف شعر أول إنسان قام بتدخين أول سِجار ذات مرة؟! كان الأجدر تسجيل شعوره والتفنّن بوصفه!

قاطع هذا المنظر فتى قد كان لطريقه سالك، جانب طريقه من أحد الجهات إنعكاس زجاج أحد المحلات، توقف أمامه وقام بتنظيف حذاءه بمنديل أخرجه من جيبه، ثم قام بتعديل حِزامه وأكمل طريقه. نظر الرمادي إلى أحذية الآخرين، ثم ملابسهم، "نظّاراتهم" التي يضعونها، وطفلين بالشارع يبدو أن أحدهم بخضم شرح الفروقات بين جهازي " الجوّال " اللذّين كانا بيديه. لم يفهم! كيف لطفلين أن لا يقفزا؟! يجريان مرحاً بين الآخرين؟! يتأملان تعرّجات دودة قز كانت على الأرض، أو يقلدان عصفور كان يغرد! أو يرسمان أشكال فنيّة بظليهما على الجدار؟! وجد الكائن الرمادي بأن السعادة لم تعد تنبع من الذات! بل صارت إلى أن تكون مقرونة بحصيلة الكائن البشري بأكبر كمية ربما من المشتريات. كان بالقرب من الطفلين زهرة، أمعن الكائن الرمادي بها، فتنته، شعر بأن كل لحظة يقضيها بالنظر إليها هو تقدير لها، توقف بجانب جدار، اِلتقط بيديه فحمة كانت ضمن مجموعة منثورة بشكل عشوائي، وبدأ برسم الوردة، أنتهى وذهب بعيداً. بدأ يسلك أزقة المدينة، على أصوات المشردين كان يستدل لزواياهم، خصصوها لهم تحت ظلال المباني الشاهقة، تحت كل هذا العدد من الأشياء بالكون، بالكاد يستطيع المشرد أن يجد له شيء حال احتياجه. كلما تقدم الكائن الرمادي بقدمية تجاه مكان، اعترضه مبنى باذخ يعلو المبنى المجاور له، توقف بينهن وحدّق بالسماء، وبدأ بحركة بطيئة يدور بعدما أطلق

العنان ليديه ليتأرجحن بدورهن. شعر بالدوخة وتكّونت اسطوانة معتمة حوله، من نقطة وقوفه حتى الأعلى من الجانبين، باستثناء النظر بشكل عمودي من الأسفل.. حيث كانت الأسطوانة ذات سقف سماوي مُشرق. لدقائق لخّص الكائن العالم من نقطة وقوفه. بعد أن اضمحلّت آخر اِهتزازة الدوران ودوخته، تنهّد الكائن بعدما ظنّ بأن كل مكان رحب لسبب من الممكن أن يتقلّص لأسباب. الأسباب قد تكون منطقيّة، ولازمة بأحيانٍ كثيرة، لكن على الأرجح سيئة. سوء لازم يتّم التكيّف معه كأفضل الخيارات! هكذا استخلص الكائن الرمادي أغلب خيارات إنسان القرن الحادي والعشرين.

تنّزه بالأرجاء، أثناء عبوره لأحد الطرق، توقفت على جانبه سيّارة أحد المارّة، حدّق بِإنعكاسه على نافذة الراكب ذات التظليل الأسود. كانت هذه المرة الأولى الذي ينظر بها الكائن لإنعكاسه، قد يكون بادئ الأمر لديه تصّور تجاه ماهيته، لكن هذه المرة الصورة بدت له أوضح. تبسّم لإنعكاسه، ولمعت عينيه لما يرى.. صورة وجوهر. بعدها بدقائق فُتحت النافذة، وجفل الكائن من المشاعر المتدفقة بحركة الكائن البشري، حيث أخرج رأسه وكأنه أراد أن يتخلص من ثقل الأرض عليه، بصق بوجه الكائن الرمادي، صرخ بصوت أجشّ:" لِمَ تحدّق يامسخ؟! اِبتعد" ثم أقفل النافذة، بعدها تحرّكوا بالسيّارة بسرعة تاركين خلفهم غبرة خفيفة، هبّت ببطء شديد حول الكائن الذي كان بسكينة يُفكّر :" لربما كنت أنتمي للسماء، ملاك ربما، ولم تستطع إدراكي الأنفس البشريّة".

خطوات الكائن تجاه الأمام كانت مقرونة بالتأمل والملاحظة، كل صغيرة وكبيرة تمرق أمام عينيه، هي عرض عجيب تم نسجه ليحاول فهمه. وإن منحه شعور الآخرين به كره اللحظة التي خرج فيها على واقع الحياة. أبسط الأحداث الواقعة أمامه، أفكار مُشتّتة غير مترابطة بأعماقه، تُحدث ضجة أو دعني أقول " غير مُنتظمة " كان عليه من الصعب فهمها. الحدث البسيط جداً الذي وقع، كان نافذة بسيطة تجعله يُلقي نظرة فقط على تلك العوالم المُختزنة داخله.

اِلتفت حوله، مباني ضخمة بكل مكان، أصوات الآت صنعها الإنسان بمختلفها، فنونه التي كانت على الحيطان تُخرجه من عُتمة الحداثة بصعوباتها وتعبّر عن ذلك، روائح أطعمة اِمتزجت ببعضها البعض، وأناس دائماً ما يبدون بأنهم على عجلة من أمرهم لينهوا عمل عليهم القيام به

وسينتهون إن لم يفعلوا! عقد العزم على إيجاد ولو بقعة صغيرة جداً يتنفّس من خلالها، ويطلق لظنونه بأن الأرض تحتضنه بالرغم أن الإنسان لم يستسغ وجود هذا الكائن الغريب.

(مخرج من العالم)

أغمض الكائن عينيه، ركض بشدة هرباً من المدينة وكل ما تحتويه من مساوئ, حتى أخيراً توقف عند بحيرة صغيرة، كانت الشمس تنعكس على المياة التي راحت تتذبذب ببطئ شديد، مُخلّفة اصفرارها بانكسار على المياه، كانت كشظايا مرآة متتالية بانتظام. أغمض الكائن عينيه واستنشق الهواء الذي تخّلل المحيط به، حيث لطفّت زهيرات الخزامى المكان، بعدها راقب عصفور كان يقترب مُحلقاً تجاه البحيرة، أمّا الاعشاب المُحيطة كانت تتراقص فوقها فراشتين، لتعمل زهرة الهندباء التي توسطت الفراشتين ككرة لؤلؤية بهيّة المنظر. ما هي ألا ثواني وقد تدحرجت بجانبه حصاة صغيرة أتت من الخلف، التفت وإذ هم مجموعة من الفتية! صرخ أحدهم:" ماذا تفعل أيّها المسخ؟! " نظر إليهم الكائن، ثم ابتعد سريعاً، ومعه طار العصفور بعيد، واضطربت الفراشتين. عاد الكائن بعد ذلك أدراجه للمدينة، كانت عيناه تدمع، شعر بأن الكون برحابته لم يستسغ وجوده، توقف أخيراً من بعيد قبال اللوحة التي خرج منها. كانت عيناه تلك اللحظة تدمع، شعر بأنه كلما انغمس بالحياة فقد تألم أكثر!

سأل نفسه:"كيف ستسعد بعد هذا يا رمادي؟ كيف وأنت "تلاحظ؟!" تلاحظ بشدة"!

أغمض الكائن الرمادي عينيه ثم اِتّجه للوحة التي خرج منها، أغمض عينيه، ثم غمر قدمه ودخل لعالمه واستلقى متُوسد كومة من الرماد بذراعية، وتلاشى بلون الرماد الذي كان يعج باللوحة .

كتب النص ورسم الغلاف: قاسم حمود الريس

2021 / 5/ 22